بين النبوة والعقل.. هل يُجمع بين النقيضين؟

بسام الكلباني

بعيدا كلّ البعد عن فلسفة الغزل وإغراءاتها، أجدني ما زلت أميل إلى التغزل في عالم فاق كل العلماء، وكان حديث زمانه، وسابقا لأوان عصره، ذلك الإمام الأعجوبة ذو الشمولية المطلقة في فلسفة العقل ومداركها ومقاصدها، ونظرية المعرفة، وعلاقتها بالعقائد والإيمان. كان لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي علوم شتى، لا تختزل في إطار معرفي واحد، فقد كتب في الفقه وأصوله، وفي الفرق وعلم الكلام، وفي المنطق والفلسفة والتربية والتصوّف؛ والذي كان خلاصة مسيرته الصوفية الروحية بأن شاركنا طريقة التعبد والتجلي والعشق الإلهي في كتابه "إحياء علوم الدين".

في مقدمة حوار الدكتور المغربي إلياس بلكا التي تمحورت حول آراء الإمام الغزالي في فلسفة العقل ونظرية المعرفة، تطرّق إلى الإشارة لموضوع أثار حفيظة فلاسفة التنوير لأعوام طويلة، فقد تساءل إيمانويل كانط وهوسرل فوكو حول ماهية التنوير ومدارك المعرفة، وطرق التناظر والاستدلال، وممّا لا شكّ فيه أن غمارا فلسفيا كهذا لا يغيب عن حجة الإسلام، فقدْ أدرك الإمام الغزالي تنوّع مدارك المعرفة.

١) الحسيّات، وهي تلك المعارف المنبثقة بالمشاهدة المجردة الظاهرة والباطنة التي تولد إدراكا مبدئيًا عند الفرد، ويعد ذلك من أكثر المصادر أتّباعا في إطار المعرفة، وتلك هي الحقيقة الأولية، التي تنشأ عن التجريد الذي يقوم به العقل مستخدما المحسوسات العينية من حوله.

٢) العقل المحض، وهو مبدأ عدم التناقض، أي أنّ القسمة ثنائية لا ثالث لها في البديهة، ورغم تطرّف تلك الحقيقة التي تسمو إلى أن تكون حديّة بعض الشيء؛ فإنه من المحال الجمع بينهما، فلا يجمع بين ثنائية العقل والنقل – في الفلسفة على الأقل- في آن واحد.

٣) التواتر، أي ذلك الخبر المستفيض الثابت، الذي يستحال أن يجمع على التواطؤ فيه كذبا. إلا أن ذلك لا يصحّ أن يكون مصدرا أو حجّة إلا على من يكون له الخبر حجة أو سندا، فالأسطورة والخرافة متواترة أيضا، إلا أنّها بعيدةٌ كلّ البعد – رغم تواترها- عن المنطق.

٤) القياس، حيث يكون فيه الأصل مثبتا بقياس آخر يستند إلى الحسيّات أو العقليّات أو المتواترات. يمكن تأويله إلى أحد المدارك الثلاثة السابقة، إلا أنّه يبقى نسبيا وعرضة للخطأ، فمن المحال أيضا أن تبنى قاعدة على تلك المدارك الثلاثة السالفة الذكر، ويجعل كل منها على قدم المساواة، فالحسيّات وإن كانت الأقرب إلى الإدراك؛ إلا أنها تصلح لفترة زمنية في عمر المرء، وهي تلك الفترة التي تسبق التمييز. ومن جهة أخرى؛ لمْ يعد يستدلّ بتلك الحسيّات في ضوابط الميتافيزيقيا والبارانورمال، فالحواس بعيدة كلّ البعد عن إدراكها، لذا يبقى القياس نسبيا، وفي الغالب غير صائب.

٥) السمعيّات، أي الوحي، وهو كلّ ما يوحى للإنسان، بمدد ربّاني، أو بغطاء بشري. يعاب هذا النّوع أيضا؛ فهو لا يملك أي مرتكز أكاديمي ولا منطقي.

٦) مسلمات الخصم، ويقول الغزالي هنا، "إنّه في حال المناظرة يجوز الأخذ بمعتقدات الخصم ومسلماته، وإنْ لمْ يقم دليل عقلي أو حسّي، انتفعنا باتخاذه أصلا في قياسنا، وامتنع عليه الإنكار الهادم لمذهبه"، إلا أنّ مسلمات الخصم لا تصح مصدرا للمعرفة، بل هي من قبيل المماحكات الجدلية التي لا تثمر سوى في النقاشات والمناظرة.

٧) الذوق والمكاشفة الذوقية، التي قد تسهم في انتفاع صاحبها أو من يقلده فيها.

معلومٌ أنّ هذه المدارك لا يزود بها الإنسان دفعة واحدة، بل على التدرج، فهو في البداية يكون خاليا لا يعرف شيئا، ثم يعرف العالم بواسطة حواسه، ويستمر الفرد- الطفل على وجه التحديد- باستخدام حواسه إلى أن يخلق فيه التمييز، وهي تلك المرحلة التي يستطيع فيها المرء أن يدرك أمورا زائدة عليه، ويتجاوز علم المحسوسات، ويرتقي خطوة في طور التطور المعرفي، ثم يخلق فيه العقل، وبه يدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات، ويدرك فيه ما لا يستطيع إدراكه بكلّ حواسه الخمس.

وإذا كان الحسّ مجرد مرحلة في الإدراك، يأتي بعدها دور آلة أخرى في التّعرف على الموجودات؛ وهي العقل. لكنّ التساؤل البديهي الذي قدْ يثار في العلن ما إذا كان العقل آخر المدارك، وآخر وسيلة للتفكر والتدبر والمعرفة، وما يراه الغزالي في هذا الصدد أن النبوة هي الطور الآخر بعد العقل، حيث يقول" الإيمان بالنبوة أن يقرّ بإثبات طور وراء العقل، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة، والعقل معزول عنها كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات، وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء أبى مدركات النبوّة واستبعدها".

لكن في ما تفيد النبوّة مع توفر الإنسان نور العقل؟ وإن خالفت العقل كيف نصدقها؟ إنّ الغزالي لا يلغي العقل لصالح الوحي أو التصوّف، بل إن العقل عنده مكانته، ولهذا تحدّث في الإحياء وغيره، لكنه وقع في نقيضين يصعب جمعهما، فكيف نوازن بالعقل مع شتى النبوّات؟

ويذكر أنّ بعض المتصوفة قد ذم العقل، وأجابهم الغزالي بأنّ العقل" نور البصيرة التي بها يعرف الله، ويعرف صدق رسله، فكيف يتصور ذمّه وقد أثنى الله تعالى عليه. وإنْ ذُمّ فما الذي بعده يُحمد؟.. لكن كيف الخروج من حالة اختلاف فحوى النصوص من مقتضيات العقل؟

bassam.alkalbani@aiesec.net